نارُ الشِّتاءِ

نار الشتاء: قصة
الكاتبة: زينب الخطيب
تدقيق لغوي وإخراج فني: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 13747 / 2019
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 041 - 6

دار الزيات للنشر والتوزيع :**Facebook Page**
E- mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات
المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم
01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

نارُ الشِّتاءِ

الكاتبة

زَيْنَبُ الخَطِيب

دار الزيان للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

"الرحمن (1) علم القرآن (2) خلق الإنسان (3) علمه البيان (4)"

تصدير

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على خير الأمم، وعلى آله وصحبه ذوي الكرم.

أما بعد:

تمثل الحروب والصراعات بين البشر تهديدًا شديدًا لحاضر المجتمع العالمي ومستقبله؛ للنتائج المترتبة عليها.

ويسعدني أن أقوم بالتصدير لقصة "نار الشتاء" باكورة أعمال كريمتي "زينب الخطيب" لعلها تكون بادرة خير، خاصة ونحن في منعطف خطير تمر به أمتنا العربية، من تشتت وتمزق وويلات حروب تذوق مرارتها، إذ تدور بعض من معانيها في ثنايا تلك القصة وبين طياتها لتنبيه الأذهان إلى ضرورة حب الأوطان والتعلق بها والمحافظة عليها والعمل على رفعتها وتقدمها.

والأولاد نبت الآباء وهم من ريحان الجنة، لذا وجب علينا أن نسوسهم ونحوطهم ونرعاهم، حتى يستوي عودهم فيعم نفعهم لأنفسهم وذويهم وبني جلدتهم وأوطانهم، بل والناس أجمعين

والله أسأل أن يكتب لهذا العمل القبول...

محمد أحمد منصور الخطيب

والد الكاتبة زينب الخطيب

❋ ❋ ❋

مقدمة

الدفء في الشتاء ليس بمكروه؛ لكن دفء هذا الشتاء ليس له طعم.

أتذكر عندما كنا صغارًا كان دفء الشتاء كوب قهوة أمام المدفأة.

عندما قال لي أول مرة "باحبك" عندما حددنا موعد خطبتنا وموعد الزفاف في السادس من شهر نوفمبر.

كلها لحظات دفء لها طعم.

أما هذا الشتاء .. دفؤه نار حارقة .. دخان قنابل وبقايا ديار أهلكتها المدافع،

نار ليست فقط من الحرائق التي أصابت أرضي؛ بل وحرائق أخرى أصابت أفئدتنا.

لأنه قد ذهب من كان دفء الشتاء، وقد بقي أمل أخير..

❄ ❄ ❄

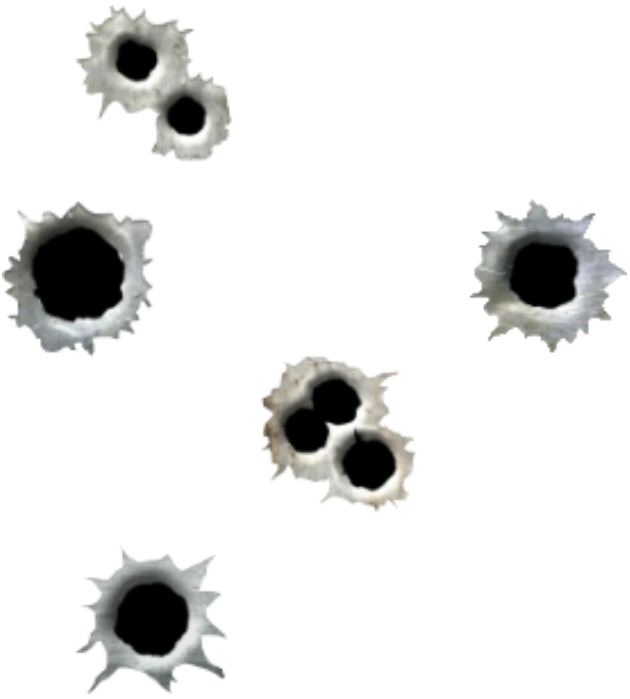

الفصل الأول

السادس والعشرون من شهر أكتوبر

صدمات

❄ ❄ ❄

حفلة هادئة في منزل أهل ليلى؛ فاليوم خطبتها، ورغم السعادة التي كانت تغمر البيت إلا إنه لم يجب الاحتفال نظرًا للظروف التي تمر بها البلاد، والتي كانت تنبئ عن حرب تطرق الأبواب.

ليلى شابة جميلة، ليس شكلًا وحسب؛ بل وأيضًا كانت تمتلك روحًا حلوة، وفكرًا مذهلًا، كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، تمتلك شعرًا أسود طويلًا، وعينين واسعتين يكسوهما لون القهوة التي تحبها، ذات بشرة سمراء قليلًا وخدين يتلونان بلون الورد، كل من رآها أحبها، لكنها أحبت شخصًا واحدًا، كان دائمًا قريبًا منها وقد رزقت به أخيرًا.

كان خطيبها هو ابن خالتها حليم، شاب أبيض الوجه والقلب، طويل، بني الشعر والعينين، في السادسة والعشرين من العمر، خلوق وذو ذكاء عال.

يراها اليوم وكأنه يراها لأول مرة، ازدادت جمالًا بفستانها الأبيض ذي الحزام الأزرق العريض وحجابها الأزرق، اعتادت أن تبهره بجمالها، لكن جمالها اليوم كان استثنائيًّا.

– كنت عارف إنك هتبهريني وتكوني أجمل النهاردا، بس ما كنتش متصور إنك هتبقي أحلى من القمر كدا.

زاد تورد وجنتيها وهو يلبسها خاتم الخطبة ويتغزل فيها، محبوبته التي نالها أخيرًا، والتي بقيت على زفافها له عشرة أيام.

لم يطلق أحد الزغاريد واكتفوا بالتهليل، ثم انقلب المكان إلى ساحة للدعاء على من أراد بالبلاد سوءًا وينوي الاعتداء.

ترك حليم وليلى ليتحدثا سويًّا عمَّا ينويان فعله للزواج.

– تفتكر هنلحق نتمم كل شيء خلال العشر أيام دول يا حليم؟

– طبعًا إن شاء الله، إحنا مش باقي لنا كتير، بيتنا في الريف وجاهز لشهر العسل، وحاجتنا كلها جاهزة للسفر، وقربنا نتمم لتموين يكفي العيلة شهور قدام، دا لو قامت الحرب، وحتى لو قامت بعد كدا هنكون استقرينا وهاقدم نفسي للجيش، بس ما اعتقدش هيحصل حاجة.

– بس يا حليم شكلهم المرة دي جد، أنا حاسة بكدا ومش فاهمة ليه حددوا ميعاد عشرة نوفمبر.

- يا ستي ما تنسيش إن لسَّا فيه كلام من حكومتنا وحكومتهم، مستحيل تبدأ الحرب بدري..

يقطع حديثهما صوت انفجار، ثم صوت جرس الإنذار، يعلو منبِّئًا عن غارة تبدأ فجأة.

- غارة، غاارة، طفوا النور، طفوا النوور، العدو بيهجم.

- إيه اللي بيحصل دا؟؟!

- بابا في إيه؟!!

- حليم .. ليلى تعالوا بسرعة خدوا الشنط دي واسبقونا للمخبأ، هنطفي الأنوار ونجيب باقي الحاجة ونيجي.

جريا على الدرج وحليم ممسك بحقائبه وحقائب ليلى التي أعداها لنقلها لمنزل الريف، جريا جريًا لمكان المخبأ وقلوبهما تدق في تناغم مع أصوات المدافع وأجراس الإنذار.

- لا!

تصرخ ليلى وتبكي لأنه فجأة...

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

السابع والعشرون من شهر أكتوبر

١٢:٣٠ ص

لحظة افتراق

فجأة حدث ما ليس بالبال، كانا قرب المخبأ فأعطى حليم الأغراض لليلى واستدار ليعود إلى أهله يساعدهم، ولكن قبل أن يقدم على الحركة ضاع كل شيء.

ضربت إحدى الطائرات منزلهم فدكته دكًّا، ساوت كل ما فيه وكل من فيه بالتراب.

لم ينج أحد .. لم ينج سواهما.

- لأ ما تقولش إنهم ماتوا، ألف لعنة على الحرب، ألف لعنة على العدو، لأ.

لم يرد حليم ولم يستطع، كل ما فعله هو أنه سحبها لداخل المخبأ مع من أتى من الناس وهي تبكي.

كانت العاشرة مساءً هي بداية الغارة.

الآن هي الحادية عشرة وخمس وأربعون دقيقة.

لم يتوقف الاحتلال عن التدمير والخراب.

وفي تمام الثانية عشرة بدأت قوات الاحتلال باقتحام المخابئ وأسر من فيها.

وصلوا للمخبأ الذي به حليم وليلى.

كانوا يختطفون الضعفاء من الرجال والنساء والأطفال ومن قاومهم كان مصيره القتل.

استطاع حليم الفرار بليلى وأغراضهما التي لم تفارق يديه قط منذ بدأت الفاجعة.

أخذا يركضان مع الجموع الهاربة باتجاه الريف وخلفهم الجنود بأسلحتهم.

تتساقط من حولهم جثث القتلى كتساقط قطرات أمطار ديسمبر، وتجري على جوانب الشارع أنهار من دماء الأبرياء من أهل المدينة.

لكن لا يمكنهما فعل شيء، لا شيء سوى الهرب.

- حليم .. ما تسيبنيش، الحقني يا حليم.

التفت ليرى محبوبته واقعة في أسر العدو تحاول المقاومة والإفلات من قبضتهم لكنهم كانوا أشد منها وطأة.

يريدون تفرقتهما كما فرقا بينهما وبين أهليهما.

حاول العودة لها لكن الجموع المتدافعة منعته من العودة.

رآها تبتعد عن ناظريه أكثر فأكثر فصرخ:

- ليلى، قاوميهم، أفلتي منهم، حاولي أرجوكِ.

حاول أن يطالها لكن الاندفاع من الناس كان ضده فلم يستطع

وكان العدو يبعدها هي الأخرى عنه.

لم يستطع معرفة ما حدث أو حتى تذكر آخر ما رأى

كانا بعيدين كثيرًا عن بعضهما لما أسقطت الطائرات قنبلة أخرى.

تشتت الناس وأسر كل من حاول الإفلات ونجا قليل منهم وبينهم حليم.

من المدينة المحتلة للريف الهادئ وبعد الكثير من الركض حاملًا أغراضه

وصل إلى الريف حيث وجد أهل الريف في استقباله مع من نجا وفي قلوب جمعيهم أسى على ما حل بأوطانهم من خراب ودمار.

وصل أخيرًا لمنزل الريف لكن وحيدًا، لا أهل ولا زوجة ولا أنيس.

وصل إلى البيت الذي كان لا بد أن يتزين بفرحة أهله بزفاف الحبيبين، لكن الفرحة ماتت مع هؤلاء الذين ماتوا

تذكرها عندما كان يؤلمها شيء كانت تقول أواه يا رحيم، أواه يا عليم.

سقط أمام المنزل جاثيًا على ركبتيه صارخًا باكيًا

- أواااه يا رب، أواااه يا رب.

لأول مرة يبكي حليم.

لأول مرة يبكي بهذه الحرقة والألم.

لأول مرة يداعبه شعور الانتقام.

فما فقده ليس بالقليل.

❋ ❋ ❋

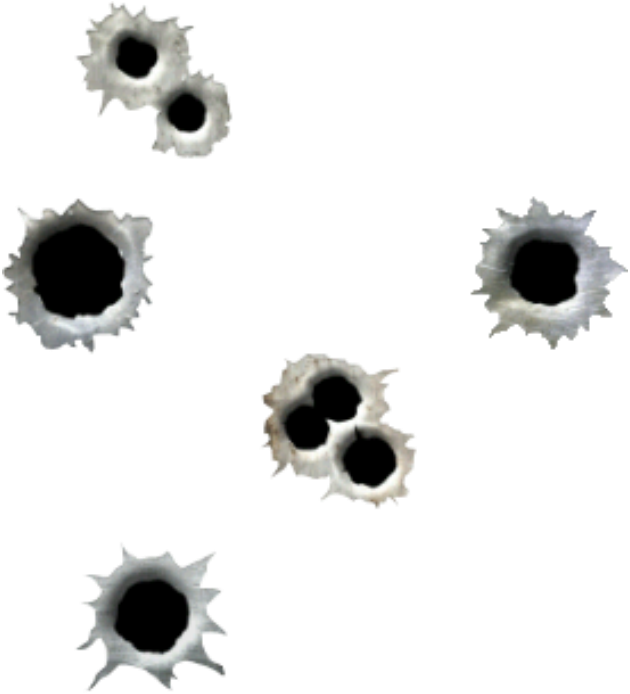

الفصل الثالث

السابع والعشرون

والثامن والعشرون من شهر أكتوبر

أين أنت؟

- حليم .. أنت فين؟ حليم، الحقني.

- قاوميهم يا ليلى.

"صوت انفجار"

- لأ .. حليم.

تحاول الإفلات من الجنود، لكن قبضاتهم أقوى من مقاوماتها، في النهاية تتعب فقد فقدت أو اعتقدت أنها فقدت آخر أمل لحياتها، لوهلات فضَّلت الموت على أن تعيش.

جرها الجنود إلى سيارة كبيرة، قد جمعوا فيها مسبقًا العديد من فاقدي الأمل كأسرى.

وتحركت هذه السيارة لمكان لم تعرفه ليلى، وصلوا إليه بصباح اليوم التالي، فقط كان بقايا وطن، بقايا من مدينة نشأت وترعرعت فيها، نشأ فيها حبها الأول، وأملها الأخير، وانتهى -كما تعتقد-.

في ذلك المعسكر الغريب وفي ساحته الكبيرة، دفع الأسرى إلى وسط الساحة، غير واعين تمامًا ما يحدث لهم، أو غير مبالين بما يحدث لهم.

تقدم إليهم أحد الجنود الكبار من جيش الأعداء، بدا أحد أهم قواد هذا الجيش، تحدث إليهم بعجرفة قائلًا:

- أكيد ما حدش فيكم عايز يفضل ع الوضع دا، أسير ذليل، في إمكانكم تخلصوا من الوضع المزري اللي انتم فيه -قهقهة من بعض الجنود-، أنا عندي ليكم حل، هتساعدونا ننفذ مخططنا وتدونا معلومات كافية أو تشاركوا كجنود معانا، في المقابل هتاخدوا حريتكم، وفلوس كتير، فلوس تعيشكم ملوك عصركم، أو هتفضلوا زي الكلاب بتنبح عشان لقمة واحدة تهدي أنين أجوافهم.

كل ما شعرت به ليلى بتلك اللحظة هو أنها في فيلم، وأن كل جوارحها تقودها لتكون البطلة، حيث ساد صمت رهيب كان لا بد أن يقطع، هبت ووقفت ترد على ذلك القائد.

- هددنا باللي أنت عايزه، حاول تقطعنا، أو تموتنا، اتعبنا بالأسئلة والكلام واضغط على نفسيتنا، وألعب على أوتار آلامنا، بس أقسم بربي وبوطني وبأغلى الناس اللي أخدتوهم مني ومن وطني ما هتستفادوا منا بشيء، ولا هتاخدوا منا ربع حرف أو نية ممكن تئذي وطننا وتلبي رغباتك.

قالتها ولم ترتجف خوفًا من موت كان قريبًا منها، لم ترتجف من قوتهم أو عددهم، هي لا يهمها الموت، ربما لأن هذا في سبيل وطن ذرات ترابه تجري في عروقها، أو ربما هذا لأنها فقدت كل شي، ولم ترغب في أن يفقد الوطن كل شيء.

نظروا إليها نظرة مفادها غضب ممزوج باحتقار لها، ثم قرروا نقل هؤلاء الأسرى إلى سجن كبير، لحين أن يعرفوا ماذا سيفعلون بهم، أو كيف يتعاملون معهم.

في تلك الزنزانة الكبيرة المظلمة، أُلقيَ جميع الأسرى، لا يعرفون مصيرهم بعد ذلك، لم يعرفوا إلا أنهم سوف يعيشون أسوأ أيام وليالي عمرهم.

أما ليلى التزمت الصمت داخل الزنزانة، لم تعلم كيف فعلت هذا أو ماذا ستفعل استكمالًا لقولها، فقط ظلت تبكي على حالها، وتترحم على أهلها.

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

الرابع من نوفمبر

عود حميد

أيام وليالي تمر على الأسرى كأنها شهور وسنوات طوال، أيام أظهرت معادن البعض، وقوة البعض من ضعفهم، وشجاعتهم من جبنهم، كشفت عن أجزاء كانت مختفية في شخصيات الجميع، خاصة ليلى لم تكن تعرف عن قوتها هذه.

ليلى ومن تعرفت عليهن ممن شاركنها لحظات السجن يفكرن بالهرب، لكن كيف؟

لو يقدرن على أخذ تلك المفاتيح التي مع الحارس لحلت المسألة، فلو خرجن من ذاك القفص اللعين لحاربن كما يحارب الرجال لأجل حريتهن، ليست المواجهة هي المشكلة.

- يا ليلى ما جاش في بالك حل؟

- صدقيني يا نورا مش عارفة، مش عارفة.

- ما تضغطيش على نفسك، أكيد فيه حل وهنلاقيه.

- صح يا سلمى، أكيد فيه حل.

خلال هذه المحادثة قامت إحدى الأسيرات -وكانت راقصة في ملهى ليلي، تدعى علا-، ومشت تجاه البوابة تتمايل، كانت تضع على كتفها شالًا من الفرو الأسود وترتدي فستانًا أسود ضيقًا به فتحة جانبية تكشف عن ساقها وأخذت تقترب ببطء من البوابة وهي تنادي الحارس، ثم أسقطت عنها الشال الأسود ليكشف عن كتفيها وذراعيها وعنقها، كانت على الرغم من مساوئها جميلة الشكل، تجذب من ينظر إليها، مغرية كمارلين مونرو لكن بشعر أسود طويل، لم يقاوم الحارس النظر إليها والاقتراب منها فعلًا.

همست سلمى لليلى ونورا قائلة:

- يا نورا، يا ليلى، شايفين البت دي بتعمل إيه؟، هي عندها دم دي!، يعني إحنا محبوسين وطالع عين أبونا وعايزيين نهرب وبنفكر ازاي نهرب وهي شايفين همها إيه؟!

لم تعلق ليلى بل كانت تشاهد وكأنها فهمت غرض هذه الفتاة اللعوب، وحدث ما توقعته، فقد فتح الحارس باب الزنزانة لتلك الفتاة

ليقترب منها وما إن وطأت قدماه أرض الزنزانة حتى انقضت عليه علا وخنقته بشالها حتى اختنق ومات بين يديها.

- إيه مش ناوين تهربوا من المكان المقرف دا ولا إيه؟.

قالتها علا في وسط ذهول كبير ممن معها، لم يفكر أحد بأنها سوف تفعل أمرًا كهذا، على أي حال خرجت الأسيرات من الزنزانة السوداء اللعينة، واجهوا في طريقهم الكثير من العقبات لكن إرادة الله لهن كانت أن نجون جميعهن.

مر الرابع والخامس من نوفمبر، ولحظِّهن وجدن من يخرجهن من المدينة المحتلة، وكل منهن عادت لأهلها.

وفي الساعة السابعة صباح السادس من نوفمبر، وصلت ليلى لبيتها في الريف، البيت الذي كان لا بد أن تكون فيه اليوم مع أهلها جميعًا يحتفلون بزفافها مع حليم، لكن أين هم وأين حليم؟

سارت بخطوات متثاقلة نحو المنزل الغريب، وقبل أن تصل إلى الباب وجدته يفتح، اتسعت عيناها وهي ترى، إنه هو من يفتح الباب.

- حليم!، دا أنت فعلًا!.

كان مستيقظًا منذ دقائق معدودة، وكعادته في الأيام السابقة كان يخرج منكس الرأس ليجلس أمام باب بيته شاردًا واجمًا، لكنه رفع رأسه مندهشًا لهذا الصوت، إنه صوتها، إنها محبوبته.

- مش معقول، هو أنا باحلم؟! أنتِ فعلًا رجعتِ يا ليلى؟

حدق كلاهما ببعض غير مصدق لما يرى، كانت هذه العودة بداية لأمل جديد في حياة كليهما، كانت لحظة انطلاق لهما معًا في طريق جديد، كان كل منها أوشك أن يكون مؤمنًا أن هذا الحال لا بد أن يتغير وسيتغير وسيعود لنا الوطن، كان السادس من نوفمبر حقًّا عودًا حميدًا.

❋ ❋ ❋

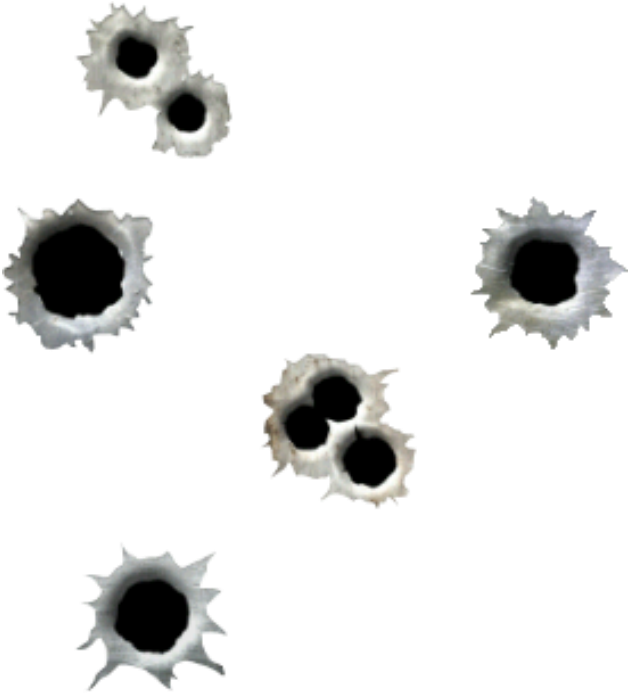

الفصل الخامس

أيام في نوفمبر

اجتمعا بعد أن ظن كلٌّ منهما ألا تلاقي، عادت لكل منهما روحه وبهجته، ولا بد أن يبدأ كفاح جديد، كفاح لأجل بناء حياة أفضل لهما.

أتفقا أن يتما إجراءات زفافهما وإشهار زواجهما، وعند المأذون يجلس حليم ليس بثيابه المنمقة بل بثياب اعتيادية، قاتمة سوداء، أما ليلى فلم تطل بالأبيض، ولا حتى بفستان عادي، بل بعباءة أيضًا سوداء لها حزام أبيض، كان هذا هو الشيء الأبيض الوحيد الذي أطلت به، والجموع من جيرانهما في التفاف حولهما يشهدان عقد القرآن، ويرددون:

" بارك الله لهما، وبارك عليهما، وجمع بينهما في خير".

لم يكن هذا ما تمنياه، لكن كانت إرادة الله هكذا، أن يحرمهما العدو من أهلهما، يحرمهما من السعادة.

اللعنة ألف مرة على الحروب، التي تسلب الأهل، والأمن، والدفء من الشتاء، والنسيم من الصيف، اللعنة على الحرب التي حالت أن يكون القلبان سعيدين بحياتهما، اللعنة ألف مرة ومرة على الحرب التي سلبت منهما الوطن.

عادا إلى البيت وفي قلب كليهما الحسرات، ليس هذا ما أردناه، ليس هذا هو الزفاف الذي تمنته ليلى، وليس هذا الفراغ بالمنزل الذي خطط له أهلها مع حليم بعد إتمام الزفاف.

- مش هو دا اللي كان نفسنا فيه، بس أنا واثقة إن ربنا هيعوضنا، بكرة الغمة دي تزول، مش كدا؟

قالتها منكسرة، ولكن بصوت مشحون بالأمل.

- طبعًا هيحصل، أنا مش هايأس أبدًا، عشمي في ربنا كبير.

تصبحي على خير يا أملي.

- وأنت من أهل الخير.

وتمر هذه الأيام يوم وراء يوم، لم يستطع العدو أن يحرز تقدمًا آخر، وعلى الجانب الآخر لم تظهر أي مقاومة تذكر، بدأ الناس في الجدال، متى سنرد عليهم؟، متى نسترد كرامتنا؟، إلى متى سيظلون ينعمون بأرضنا هكذا؟.

يبدو أن فكرة الحرب والانتقام بدأت تتفشى في عقول الجميع، وتسيطر على أذهانهم وحتى تلهيهم -أحيانًا- عن أشغالهم، حتى حليم يبدو شاردًا هذه الأيام.

- حليم .. حليم .. يا حليم.

- إيه! إيه يا ليلى؟

- ما لك؟ أنت مش بخير وفيك حاجة.

- مافيش حاجة، وما تشغليش بالك بيَّ.

- ما فيش حاجة ازاي وأنت مش راضي تاكل، وباكلمك وعلى طول سرحان؟، دا غير إن تصرفاتك غريبة اليومين دول.

- يا حبيبتي والله ما تقلقي، تلاقيني بس عشان عايز أغير جو شوية، أنتِ عارفة ضغط الشغل ومشاغل البلد والجو اللي حوالينا عامل إيه، بصي أنا هاطلع شوية أتمشى أو هاروح أشرب قهوة أفك عن نفسي شوية وهارجع لك تمام ما تقلقيش.

خرج حليم إلى المقهى المجاور لمنزلهم، جلس في مكانه كالعادة، وطلب فنجانًا من القهوة المعتادة، لكن هذه المرة كانت مختلفة، كان هناك مجموعة من الرجال يتحادثون بهمس.

- عايز أفهم لحد إمتى هنفضل ع الحال دا؟، ما فيش حتى أي وسيلة نساعد بيها الجيش؟، ما فيش أي طريقة؟.

- ما أنا قلت لك أهو، هنعمل فرقة كدا صغيرة ونجيب سلاح ونشتغل فدائيين، ونهجم ع المعسكر بتاعهم نأدبهم.

- طب ما انت بتتكلم أهو ولسَّا ما عملناش حاجة.

كان حليم ينظر إليهم ويستمع دون أن ينتبهوا إلى أنه يسمعهم، لكن سرعان ما كشف أنه عرف ما ينون القيام به ومكان تجمعهم، وعرف تفاصيل مخططهم، وعندها أدرك وأدركوا جميعًا أن هناك فردًا آخر قد تورط في هذه المهمة الخطرة التي تجهز بدافع الانتقام ورد الاعتبار.

❋ ❋ ❋

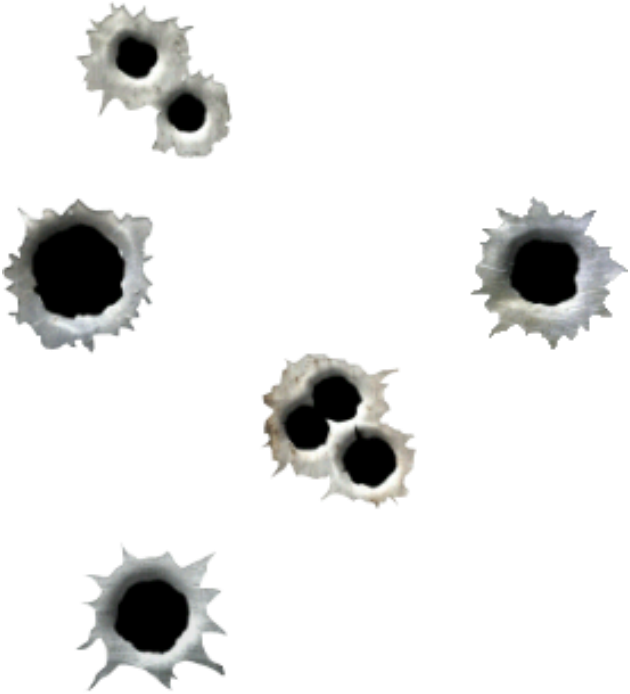

الفصل السادس

طريق جديد

لقاء وراء لقاء، خطوة وراء خطوة، ويقترب حليم مع مجموعة الفدائيين من بدء مهمتهم، ومع كل خطوة جديدة كان حليم يتغير أكثر، كان يزداد صلابة وبرودًا، وهو ما لاحظته ليلى جدًّا .

حاولت سؤاله عما غيره وكان يتجنب كل مرة جوابها، حاولت أن تعيده كما كان، لكنه كان قد قطع عهدًا على نفسه ألا يلين إلا بعد أن يكسر شوكة عدوه وينتقم لأهله.

كانت تستيقظ في الصباح فلا تجده بجوارها وتسهر حتى يغلبها النوم ليلًا وهي جالسة على الأريكة تنتظره ليعود، ثم تستيقظ فجرًا لتجد أنه قد نقلها من الأريكة للسرير، فتبحث عنه في كل أرجاء المنزل ولا تجده.

قضت أيامها هذه ما بين النوم القليل والبكاء والخوف، كانت تخاف من صوت الطائرات وصوت الانفجارات التي كانت تسمعها بمخيلتها تذكرًا لليوم المشئوم، كانت تبكي من خوفها، أو تبكي حين تذكرها لأهلها، وكانت لا تقدر أن تنام جيدًا، كانت تفتقر للأمان، وتشعر بالوحدة تخنقها، ولم يكن حليم هنا دائمًا ليواسيها، كانت تفتقده

جدًّا وكانت خائفة عليه، لا تدري ما غيره، ولا تدري هل سيعود كما كان أم لا!.

على الجانب الآخر، كان حليم لا ينام تقريبًا، كان يرجع قبل الفجر، ينام ساعة أو ساعتين، ثم يستيقظ ليصلي ويرحل قبل أن تستيقظ ليلى.

يذهب ليقابل مجموعة الفدائيين في مكان ما، كانوا يناقشون فيه خطتهم لأيام وليال عديدة، حددوا مهمة كل فرد منهم، وما المعدات التي سيستخدمونها، ومن أين سيحصلون عليها.

كما كانوا يتدربون طوال اليوم تدريبات شاقة متعبة، غير التدريبات على السلاح الذي سيستخدمه كل منهم، وظلوا لعدة أيام متواصلة، وعدة أسابيع، لا يتوقفون وكل منهم يضع وطنه أمام عينيه.

وفي ليلة من ليالي ديسمبر القاسية سهرت ليلى كعادتها، تنتظر على أمل عودة ذلك الحبيب الغائب الذي لم تره إلا مرة أو مرتين منذ أسابيع، لكن هذه المرة لم يغلبها النوم كالعادة، بل غالبتها ذكريات الغارة الأولى.

صوت ما يقترب من المنزل، ترنو معه ذكريات مشوهة بالنيران والدخان، بالقنابل ودانات المدافع، صراخ الأطفال، وعويل النساء،

بكاء الكبار قبل الصغار، دموع الثكلى، رائحة الرماد والدماء، وآخر مشهد لأهلها قبل أن يرحلوا ويتركوهما وحيدين، اللعنة على المستعمرين غاصبي الأرض، اللعنة على كل من يسلب شيئًا ليس من حقه، من يفيض في الأرض فسادًا وخرابًا.

ذكريات مرت على بالها جعلت قلبها وعقلها يتألمان، لم تسع عينيها دموعها، فأجهشت بالبكاء، خوفًا وحزنًا، لم تستطع التحمل أكثر من ذلك، بكت وبكت حتى احمرت عيناها ووجنتاها، كان الباب يفتح فازداد خوفها ولم تعلم ماذا تفعل أو من سيدخل، لم تظن أن الآتي في نفس اللحظة للبيت هو حليم الذي فزع لأنها ما زالت مستيقظة ولأنها تبكي بانهيار.

❋ ❋ ❋

الفصل السابع

ساعة الصفر

- ليلى، ما لك يا حبيبتي؟

ارتفع صوتها وهي تبكي:

- ما لي! ودا يهمك يعني؟، ما أنت سايبني بقى لك شهر وحدي باتألم نفس الألم دا كل يوم، وأنت كل يوم مش هنا، بادور عليك مش بالقاك، انت لو يهمك ما لي ما كنتش سِبتني كل دا.

- صدقيني أنا مش قصدي أسيبك، انت لما تعرفي أنا غايب ليه هتعذريني.

- أنا مش عايزة أعرف انت غايب ليه، أنا عايزاك جنبي، أنا فقدت كل شيء وما بقيش ليَّ غيرك، أنا كل يوم بافتكر ستة وعشرين أكتوبر، كل يوم باسمع صوت الطيارات والرصاص في وداني.

بدأت تبكي وهي تضع يديها على أذنيها، وتكورت خائفة وصوت الحرب يعلو بآذانها، علا صوت بكائها، وازداد تألمها، وكاد صوت بكائها يقطع قلب حليم الذي كان قد قطع على نفسه عهدًا ألا يلين.

حاول أن يربت على ظهرها علها تهدأ، لكن وجدها تلقي بنفسها بين ذراعيه، ضمته وهي تبكي بحرقة وألم، ووجد ذراعيه تلتفان حولها

بهدوء، ثم حملها إلى السرير بعدما بدأت تهدأ، وضمها إلى صدره بحب حتى نامت، كانت ترتجف بين ذراعيه خوفًا فلم يستطع تركها حتى هدأت تمامًا، ثم تركها ليذهب كعادته إلى أصدقائه الجدد، مجموعة الفدائيين.

أعطى علي -قائد المجموعة- كلًّا منهم سلاحه وأدواته التي سيستخدمها في معركتهم الصغيرة، وأخبرهم أنهم سيتمهلون لأسبوع كامل حتى تصل المعلومات النهائية عن الموقع المستهدف.

- أنا كلفت سيد بالمهمة دي، سيد خفيف في حركته وسمعه قوي وبيحفظ الكلام بالحرف، والواد دا دماغه عالية وهو الوحيد اللي هيقدر يدخل المعسكر بتاعهم ويخرج ومعاه المعلومات الكافية اللي هتساعدنا في هجومنا الأول.

مجموعة الفدائيين تتكون من تسعة أفراد كان حليم عاشرهم، هم: علي، سيد، مجدي، أحمد، مروان، فارس، رفيع، وائل، فتحي وحليم، مجموعة تعاهدوا معًا على الوفاء، ورد الاعتبار، وعدم الخيانة.

عاد حليم إلى المنزل بحقيبة مليئة بأسلحته وأدواته، ووضعها في المخزن وأخفاها كي لا تراها ليلى، وخرج من المخزن وجلس مع ليلى وصالحها لأنه كان يتركها، ووعدها بأنه قريبًا لن يكرر اختفاءه هذا.

وعلى الرغم من إخفائه الجيد للحقيبة إلا إن قوة نظر ليلى كشفتها، رأت ما فيها وما لفت انتباهها وجود زي عسكري، لكن هذا الزي ليس لجيش الوطن، وكأن صاعقة نزلت عليها من السماء مرة واحدة، وبدأت الظنون والشكوك تلعب برأسها.

ومر اليوم سريعًا وحل الليل، وعندما نامت ليلى بدأ بتجهيز نفسه للسفر إلى العاصمة موقع الحرب.

في تلك الحقيبة السوداء الكبيرة رتبت المسدسات والذخيرة، بعض الملابس للتخفي، وبطاقات شخصية زورت ليسمح لهم بالدخول للمعسكر الخاص بجيش العدو والكثير من الديناميت لأجل الانفجار الكبير.

حمل الحقيبة في هدوء، وتحرك على أطراف أصابعه، وكاد أن يفتح الباب، وفي نفس اللحظة استيقظت ليلى لتراه خارجًا.

- حليم، أنت رايح فين؟ وإيه الشنطة الكبيرة دي؟

❋ ❋ ❋

الفصل الثامن

بدأت المعركة

- حليم أنت رايح فين؟

فزع حليم عندما سمع صوتها، لم يكن يريدها أن تشعر به وهو يخرج، لو علمت ما ينوي فعله ستوقفه حتمًا ولن تجعله يستمر.

- مشوار وجاي ما تقلقيش.

ردت عليه بانفعال:

- مشوار إيه اللي رايحه بشنطة مليانة سلاح يا حليم؟

وكأن أحدهم ضربه على رأسه، كيف عرفت؟ أكانت تتبعه؟ أم رأت الحقيبة؟ وكيف رأتها؟ كل هذا دار في رأسه ولم يجد لكل هذا إجابة.

- ما ترد يا حليم، فسر لي وجود السلاح والديناميت معاك، والزي العسكري بتاع جيش العدو، ما ترد، ولا خايف تتفضح خيانتك؟.

صدمته الكلمات القاسية، هي تشك فيه، تعتقد أنه خائن لوطنه، تتهمه بجريمة لم يفكر أبدًا في فعلها.

– أنتِ إيه اللي أنت بتقوليه دا يا مجنونة؟!

– إيه اللي أنا باقوله ولا إيه اللي أنت بتعمله، كان لازم أعرف من البداية، من ساعة ما اتجمعنا تاني وأنت متغير مية وتمانين درجة، دايمًا مش في البيت، ولما بتبقى في البيت دماغك ما بتبقاش معايا، أكلك اختلف، تفكيرك اختلف، تصرفاتك اختلفت، كلامك وأفعالك اختلفت، كان لازم أعرف إن في حاجة.

– أنتِ بتفكري ازاي؟ أنا مش خاين، أنتِ ازاي تظني فيَّ كدا؟!، كل اللي بتقوليه دا مجرد تخيلات لا أكتر، وظنون لا أساس لها من الصحة، وهاخليكِ تتأكدي من دا.

نظر إلى الساعة ووجد أنه سيتأخر إن استمر في الجدال معها، إن لم يتواجد في موعده ستفشل الخطة بأكملها، استدار ليرحل، لكنها هجمت عليه وأمسكت به وأغلقت الباب.

– سيبيني يا ليلى، أنت مجنونة؟ سيبيني أمشي.

– أنا مش هاسيبك ترجع لهم غير على جثتي، مش هاخليك تروح تساعدهم وتخون الوطن تاني.

- أنا قلت لك أنا مش خاين، أنت ازاي بتشكي فيَّ؟

- فسر لي وجود السلاح، والزي العسكري، والديناميت، والخرايط، وخروجك المتكرر وتغيبك عن البيت.

- يا ليلى أرجوك..

- قلت مش هاسيبك.

تنهد ثم جلس، وشرح لها سبب غيابه، وحكى لها عن مجموعة الفدائيين، وأخبرها عن خطتهم، أخبرها أنه سر كان يجب ألا يفشى، وأنه لم يود إخبارها كي لا تمنعه عن مقابلتهم، ولكي لا تمنعه من مشاركتهم.

كانت تستمع له وتصدقه، هي أصلًا لم تصدق في قرارة نفسها أنه خائن، كذبت نفسها والبراهين حتى أثبت هو أن ظنونها خاطئة، وأنها مجرد ترهات لا أكثر تراودها إثر خوفها من كل شيء قد يحدث، تخاف فقدانه وهو الآن كل شيء لها، هو الماضي والحاضر، والمستقبل لها.

نظر للساعة ووجد أنه سيتأخر إن لم يتحرك الآن، فقطع كلامه معها قائلًا:

- أنا آسف يا ليلى، أنا لازم أمشي.

تنهدت ثم قالت:

- روح يا حليم، ربنا يسلم طريقك.

قبل رأسها واستدار تجاه الباب، نادت عليه فنظر لها.

- عايزاك توعدني وعدين.

- إيه همَّ؟

- الأول تخلي بالك من نفسك.

- والتاني؟

- ارجع لي سليم، وارجع وأنت رادد اعتبار وطنك، وواخد تارنا وتار أهلنا اللي ماتوا على إيديهم.

رد مبتسمًا:

- أوعدك.

- لا إله إلا الله.

- محمد رسول الله.

ثم سار في طريقه، مسرعًا لبدء الجهاد، لاسترداد الكرامة والثأر لأهله ووطنه، سار مسرعًا حتى وصل إلى مجموعة الفدائيين ليستعدوا لتنفيذ المهمة الصعبة.

راجع علي معهم الخطة، وختم حديثهم بالدعاء.

- مستعدين يا شباب؟، كله يأكد ويتمم على حاجته.

سأله حليم:

- هنتحرك إمتى؟

- بعد الفجر.

❋ ❋ ❋

الفصل التاسع

الأول من يناير

5:30 رد الاعتبار

بعد صلاة الفجر، اتجه العشرة إلى المعسكر، ودخلوا بالهويات المزيفة للداخل وعند نقطة في منتصف المعسكر، قسم العشرة إلى ثلاثة مجموعات ذهب كل منهم إلى قسم من أقسام المعسكر الثلاثة المحددة لهم لتنفيذ مهمتهم.

أما عن رفيع، وائل وفتحي، تتمثل مهمتهم في القسم الشرقي من المعسكر، قسم مبيت الجنود ومخزن الغذاء.

وأما عن أحمد، مروان وفارس، مهمتهم كانت في القسم الغربي، حيث مكان الاتصالات ومستندات الجيش.

أما عن علي، سيد، مجدي وحليم، مهتهم كانت القلب أو المبنى الرئيسي، مبنى القيادات ومخزن الأسلحة ومقر تجهيز الخطط.

كان عليهم بأسلحتهم والمتفجرات التي بحوزتهم إحداث أكبر ضرر بالمعسكر.

نادى علي على رفاقه ليتأكد أنهم بجواره.

- دلوقتي إحنا هنتقسم قسمين، أنا وحليم هنركب الديناميت في مخزن السلاح، وأنت يا سيد خد مجدي ناحية مكتب القيادة، اتصرفوا

عادي وكأنكم منهم، اللي هيركب القنابل لازم التاني يداري عليه بأي شكل، لازم حركتكم تبقى خفيفة، مفهوم؟

- علم وينفذ.

تحرك كل منهم لموقعه، وبدأ كل منهم بالعمل، كانت مهمة تركيب المتفجرات تقع على علي، ومهمة المراقبة على حليم، قام علي بتركيب واحدة من القنابل في يمين المخزن، والأخرى قرب المدافع، وأخيرًا كان يركب الأخيرة خلف المبنى.

- تعرف يا حليم، لو نجحنا في المهمة دي هتبقى أول حاجة مفيدة أعملها في حياتي، بيني وبينك أنا كنت مجرد حاجة بلا فايدة، بالعكس أنا كنت ضار جدًّا للناس اللي حواليا، كنت شاكك في إني إنسان أصلًا، كائن بلا أهداف، بيصحا ياكل ويشرب وينام، لا نفعت في صداقة، ولا حب ولا خطوبة، لحد يوم الغارة، اليوم دا اللي نجيت فيه من الموت بأعجوبة، كنت برَّا البيت وقبل ما أوصل له البيت اتقصف، اتدمر خلاص، كل أهلي راحوا، وحتى بنت الجيران اللي حبيتها من قلبي راحت، ما عادش باقي لي حاجة، كنت عايز أموت وراهم ما اتحملتش، بس لقيت شعور تاني دفعني إني أعيش، الانتقام، حسيت إني لازم آخد حقي، بعديها لو مت مش مشكلة.

كان قد انتهى من وضع القنبلة وإخفائها جيدًا، عليهم الآن الخروج قبل أن يرى أحد ما فعلوا أو ينتبه لهم، سيفجرون القنابل آليًّا من الخارج، كان كل فريق قد أنهى مهمته، و تجمعوا بالخارج دون أن يشعر بهم أحد، كانوا عشر قنابل بعدد الرجال، أمسك كل منهم بجهاز من الأجهزة التي ستفجر القنابل، وفي نفس اللحظة ضغطوا زر التفجير، وتصاعدت النيران لتبتلع المعسكر ابتلاعًا، كان الفدائيون على اتفاق مع جنود الجيش الوطني على الخطة التي سيقومون بها، فما إن خرج الجنود هربًا من النار، حتى ابتلعهم أسود الجيش الوطني ابتلاعًا، فمن نجا من النار مات بالرصاص، أو أخذ أسيرًا، أو هرب إلى نقطة أخرى حتى تأتي الإمدادات، هلل الجمع وكبر، وتعالت أصوات النصر معلنة عن عهد جديد، عهد الحرية.

في وسط كل هذا الفرح، يسقط علي مغشيًّا عليه.

- علي، فيك إيه؟!

- رد يا علي!!

❋ ❋ ❋

الفصل العاشر

علي

تجلس ليلى أمام التلفاز حينًا، وجوار المذياع حينًا، تستمع إلى أخبار الجيش والفدائيين، حتى الآن لا توجد وفيات ولكن هناك بعض الإصابات، هل حليم بخير؟

تسأل نفسها، ثم تبعد هذه الفكرة عن رأسها، سيكون بخير، لقد وعدها، علمت بأن العدو يعد عدته وإمداداته لمعاودة الهجوم، إذن ستكون هناك معركة قريبًا، لكن متى؟ وهل سيعود حليم قبلها أم سيظل حتى تضع الحرب أوزارها؟

بدت منهكة جدًّا، أمر طبيعي فهي لم تنم سوى بضع ساعات، حتى وإن نامت فعقلها لا ينام، أرهقها التفكير فيما حدث وفيما سيحدث.

على الجانب الآخر تسعة فدائيين في المستشفى ينتظرون أن يطمئنوا على عاشرهم، علي فقد وعيه بعدما انتهت مهمتهم فجأة، يقول الطبيب إن حالته ليست خطيرة، لكن لِمَ لمْ يفق بعد؟

كان حليم أكثرهم توترًا، صار يروح ويعود بطول الممر، ينظر إلى علي ثم يروح مرة أخرى، ثم يأتي لينظر إلى علي، ثم يتجه للشرفة ويلح في الدعاء له.

جاءه سيد وأوقفه عن حركته قليلًا.

- اهدا يا حليم، أنا عارف أنت قلقان عليه قد إيه، وقد إيه بتحبه، واحنا كلنا كدا، بس انت كدا بتتعب نفسك وممكن يجرى لك حاجة من الضغط النفسي اللي حاطط نفسك فيه.

- مش عارف أهدا، عدى وقت ولسَّا ما فاقش.

- يا أخي ما أنت سمعت الدكتور، وهو طمنْنَا عليه، حالته مش خطيرة وهيفوق ويبقى كويس.

حاول حليم أن يتمالك أعصابه، هو يعلم أن هذا الذي فيه علي بسبب أنه أرهق نفسه كثيرًا، لم يكن ينام كثيرًا، ولم يكن يأكل جيدًا، كما أنه أرهق نفسه في التدريبات أكثر من أي شخص، كان يعلم هذا ولكن، قلبه يدق بشراسة ويشعر بالقلق، هناك حدسه الذي يقول إن شيئًا ما سيحدث.

دار في رأسه بعض الكلمات التي كان يقولها له أثناء المعسكر..

- إيه يا حليم؟ سرحان في إيه؟

- ها؟ ولا حاجة.

- خايف؟.

- شوية.

- لكن مش على نفسك، أنت شجاع جدًّا، ودا اللي حسيته أول ما عرفتك، وابن أصول وقوي، بس شكلك خدت صدمة قوية في الغارة الأولى.

- أهلي كلهم ماتوا في الغارة دي، اترمى على بيتنا صاروخ خلى عاليه واطيه، كلهم راحوا مني، ما بقى ليش غيرها، ليلى.

ابتسم علي ابتسامة ثم عادت لوجهه لمحة الحزن.

تذكر حليم تعبيراته هذه وفهمها حينما حكى علي عن ماضيه، فقد تذكر علي الفتاة التي أحبها لما ذكر حليم ليلى.

ذكريات كثيرة له مع علي مرت على باله، يزداد قلقًا أكثر وأكثر، لم يكن يعتقد أنه سيتعلق بصديق هكذا، هو لم يكن له أصدقاء مقربون جدًّا منه، كان محفوفًا بالناس، لكن لم يكونوا مثل علي.

يقطع هذا التفكير صوت سيد وهو يناديه:

- علي فاق يا حليم.

❋ ❋ ❋

الفصل الحادي عشر

النهاية

العدو الآن كالرجل السكران، يتحرك بلا وعي، يخال إليه أنه يعي ما يفعل، وأنه يقوم بالصواب، لكنه لا يدري أن كل محاولاته سوف تبوء بالفشل.

يستعد العدو للهجوم مرة أخرى، لكن جنودنا لهم بالمرصاد، وفرقة الفدائيين عادوا أقوى بعد إفاقة صديقهم وقائدهم.

أما عن الريف، فكان كل من فيه يستعدون لمساعدة الجيش، إما بالمال، أو إمدادهم بالغذاء الوفير، أو التبرع بالدم للمصابين، أو بالتطوع كجنود وعساكر في الجيش، أو بالتطوع كأطباء لمعالجة الجرحى، أو كممرضات للسهر على تلك الحالات، أو حتى بمجرد الدعاء لهم لمن لم يستطع للجهاد سبيلًا.

مر أكثر من يوم والكل يتجهز للمعركة الفاصلة، لم ير أحد أهله، ولم يسمع الأهل عن ذويهم أي شيء، لم يعلموا إن كانوا قد ماتوا أو هل هم أحياء يرزقون، ليلى لم تتلقَ أي رسائل من حليم، ولم تستطع التواصل معه أو معرفة أخباره وأحواله.

قررت أن تشارك هي أيضًا في الحرب؛ فذهبت إلى المستشفيات الميدانية وتطوعت كممرضة في إحداها، ولم تكن وحدها؛ بل انضمت معها نورا، صديقتها التي تعرفت عليها في الأسر.

وكان معهما عدد من الفتيات في مثل سنهما والأكبر والأصغر، كلهن استعددن لخدمة المصابين من الجنود، لم تتواجد أي إصابات هذه الأيام فالمعركة لم تبدأ بعد، كان هذا الهدوء الذي يسبق العاصفة.

بدأ جيش العدو بالزحف على أراضي الوطن، واستعد الجيش الوطني بكل ما أوتي من قوة للمواجهة، وفي الصحراء التي قرب المدينة، بدأت نهاية الحرب.

قام الجنود باختراق جيش العدو، وانهالوا عليهم بالرصاص والقنابل، كانوا يعاقبون العدو بمثل ما أحل بهم.

كثرت الإصابات في الطرفين، ولكن كانت على جانب العدو أكثر، كان الموت يلتهم العدو التهامًا بأيدي الجنود الأبطال، بدأ العدو بالتقهقر بعد إدراكهم للهزيمة، يجرون كنمل فزع إلى كل اتجاه بلا هدف أو وجهة، يهربون فقط من موت أو أسر محتوم.

وإيقافًا لفناء جنودهم، رفعوا راية الاستسلام وطالبوا بعمل معاهدة، وبالفعل توقف إطلاق النار.

نقل المصابون إلى المستشفيات، انتهى الأمر بمجموعة الفدائيين ببعض الإصابات، لكنهم سيكونون بخير.

نقل علي وحليم إلى المستشفى التي تطوعت به ليلى ونورا، كان علي غارقًا في دمه بعد أن أصابته رصاصة في كتفه، أما حليم فكانت إصابته طفيفة، ما إن شاهدت نورا علي حتى شهقت شهقة سمعتها ليلى وهي على أعتاب الغرفة التي بها المصابان.

- في إيه يا نورا؟ .. حليم! أنت رجعت أخيرًا.

ابتسم لها حليم قائلًا:

- ونفذت وعدي، رجعت لك سليم، وواخد تارنا من اللي قتلوا عيلتنا.

نظرت ليلي لنورا لتجدها جالسة بجوار علي تبكي، ثم نظرت نورا لحليم قائلة:

- علي اتصاب ازاي؟

- أنت تعرفيه؟

- أيوة دا... كان مفروض هيبقى خطيبي، آخر مرة قبل الغارة شديت معاه وطلعت من بيتنا أتمشى، وأما حلصت الغارة حاولت أرجع ما عرفتش، كانوا قبضوا عليَّ مع ليلى.

- هو افتكرك مُتِّ مع اللي ماتوا في عمارتكم، انتِ غيرتِ فيه حاجات كتير باختفائك أنت وأهله.

- ليلى، الدكتور قال هيكون بخير؟

- ما تقلقيش قريب حالته هتكون مستقرة.

وجاء السلام، حاملًا معه هداياه للشعب المنتصر، بعد أن كانوا تائهين ضائعين، عادت الأمور لطبيعتها.

وبعد بضعة شهور كان الوضع مستقرًّا أكثر في الدولة، وبدأت الحياة تدب في الأرض الميتة، بعد أن سقيت بالحرية فاهتزت وربت، وعاد البناء وأعيد للحياة كل ما هدم من منشآت.

وبعد بضعة سنوات ذهب ابن ليلى وحليم "كريم" إلى صفه الأول في المدرسة، ونطقت ابنتهما "حور" أولى كلماتها، أما علي فقد تزوج من نورا، وها هي طفلتهما الأولى "هنا" ترافق كريم إلى المدرسة، وهما بانتظار مولودهما الثاني.

وكل فرد في هذا الشعب أصبح ينعم بالسكينة، فيعمل جاهدًا على تحسين معيشته وتطوير حياته، وتحقيق أحلامه وآماله، بدأت الدولة تتطور شيئًا فشيئًا وكررت كثيرًا من أمجاد الماضي التي فقدت في الحرب الجاحفة، بل وزادت عليها، فعم الرخاء بعد الانتصار مرة أخرى.

❋ ❋ ❋